شيطانه بنتؤور

(المحادثة الحادية عشرة)

قال الهدهد : لما كان الغد ، ورد فى الجرائد من جملة الفوائد ، أن عرابى (١) زعيم الثورة المشهورة ، والرميم الباقى من تلك الفتنة المقبور ، يصل الى القاهرة عصر اليوم ، ويرده الزمن النكد الى القوم . فقلت فى نفسى بئس اليوم ، مضت فيه المدة على الجناية ، وختمت به فصول الرواية ، ونحن فيه ما كنا بالامس ، أخلاق خلقة ورابطة ممزقة ، وقلوب متفرقة ، وآمال بالصغائر معلقة ، وعقول للاباطيل مصدقة ، ونفوس الى غير المجد شيقة ، نغالطها فى حقائق الاشياء ، ونمدها فى المداهنة والرياء ، ونحملها الحسد والحقد والبغضاء ، ولا نردها الى صحيح اعتقاد فى معاش ولا معاد . وليس الرجل فى اعتقادى - بصرف النظر عن عظيم جنايته وماتحل به الظنون من تهمة الخيانة - من رجال التاريخ وأن حسب عليه ظلما ، ولا أجد له مثلا فيه إلا بعض المخلوقات المكرمة مما ذكر فى الكتاب أوحفظ فى التاريخ ، مثل هدهد سليمان ولبد لقمان ، ونملة القرآن ، والنعامة ، وبغلة ابى دلامة ، والحمام والعنكبوت ، وذلك الحوت ، وابيس المصريين ، وأوز الرومانيين ، وكبش اسماعيل ، وبقرة بنى اسرائيل والغراب الذى أزال حيرة قابيل ، وبوسيفال مطية الاسكندر ، وفيل ابرهة ، وحمار المسيح ، وناقة صالح ، وأنثى الذئب التى أرضعت رومولوس مؤسس الامبراطورية الرومانية ، وأبى قيس قرد اليزيد ، وأسد بن طولون ، وثعبان كليوباتره ، وكلب أصحاب الكهف . ويؤخذ من أحاديث الناس عنه فى أول أمره وماظهر فى زمن الثورة من سعيه فى

---

(١) العصور — هذه أقوال املتها حاجات العصر البائد وهى اثر من اثار الحملة الكبيرة التى كانت تديرها السراى فى عصر الخديو السابق ضد عرابى اول قائل « مصر للمصريين » وحامل لواء القومية المصرية فى عصر السلام والبطل الاول من ابطال الاستقلال . ومن غريب امر هذا الرجل العظيم بحق ، والمنكود الطالع بحق ايضاً ان تطبع مذكراته فى مصر ، ويضحى فى سبيلها احد اولاده بما هو فى امس الحاجة اليه من المال ، فلا يقرؤها الا عشرات خدد نسخها اكثرهم هدايا من ولده البار يذكرى والده المبرور ، ولا يكتب عن هذه المذكرات الا كاتب واحد يعرفه محرر العصور حق المعرفة

تجسيم الشر ، وعمله على توسيع الخرق ، إن أمره مروم وأنه حاول أن يغير الحال ، وسعى لما يسمو اليه عظماء الرجال، فخدع الامة ثم انخدع بها(١) ، وساق الحكومة ثم انساق بها ، واشتد عليه الموقف فدخل فيه صغير العقل ، وخرج منه صغير النفس : همة كبيرة صغرها الجهل ، وحب للحرية أفسده الطمع . والرجل من هذه الوجهة لايخلو من فضل ولو تخرج فى المدارس الحربية . ونشأ فى السياسة نشأة تليق بالعصر الذى ظهر فيه ، ثم علق آماله بالمقبول المعقول من الامور ، وبنى مطالبه على الحرية المعتدلة، لنال بالجد كل مرام ، ولبلغ مراتب الرجال العظام .

(قال) وكان موعدى مع النسر أن نلتقى فى مجلس عمرو . فلما كان الاصيل خرجت الى الفسطاط ، فى زى قسيس من الاقباط ، كما سبق بذلك الاشتراط . وأنا انتظر من الاستاذ أن يرى فى (عرابى) رأيه ويقول فيه كلمته ، واعلم أنه كبير الانظار فى الحوادث الكبار ، وله فى الامور الفصل ، وحكمه على الرجال العدل . فحين بلغت مدينة ابن العاص التى فتحها للاسلام بالرأى قبل الفتح بالسيف ، وافيت مقر الامارة ، وهناك ما كان أسهل الوصول ، وأيسر الدخول ، رفعت الحجب بين عامل عمر ، وبين الزمر ، واقتدى به وجوه العرب فى سلوكهم ، والناس على دين ملوكهم . فاستقبلت مجلساً أليق بالوعاظ والعلماء ، منه بالملوك والامراء . وقدمت على أمير تاجه العمامة ، ومطرفه القباء وصولجانه السيف ، وكرسيه التراب وحاشيته الاصحاب وقصره خيمة محدودة الاطناب ، يحيط به العرب وكأنه أحدهم . وهو زعيمهم فى مصر وسيدهم .

وكان النسر بين يديه . قد سبقنى اليه . وهو يبالغ للعامل فى الخطاب، ويلقى السؤال ويأخذ الجواب . فسمعته يقول : —

« هذه دنياكم يا ابن العاص لاتغترون بها ، ولا تحفلون بحبها ، وأنها لدنيا العقلاء وطلبة الحكماء . فكيف دينكم ؟ »

قال: أسهل وأيسر وأسمح . الشهادة وهى كلمة ، والصلاة وهى عصمة، والزكاة وهى

---

(١) العصور سأماانه خدع الامة فلا . وماانه انخدع بها فنعم . واما انه ساق الحكومة فنعم . واماانه انساق بها فلا . وهكذا اذا اخذت تجاوب على هذه القضايا المتلاحقه بنعم ولا ، مع اختيار الموضع الذى توضع فيه كل منها بما يطابق الحق تخرجت بنتيجة اخرى .

رحمة ، والحج وهو الحكمة ، وماسوى ذلك فزيادة فى العبادة أو بدع تأتى بها الايام وأغراض لايصدأ بها جوهر الاسلام »

قال « نعمت الدنيا لو لم تزل عن الخلفاء ، وتؤول الى الملوك والامراء ، وحبذا الدين لو سلم من عبث الفقهاء ، وعبث الجهلاء قال : « وما يمنعك أيها القسيس أن تستقبل هذه الدنيا وتدخل فى هذا الدين » قال : « انى أتبع دينا يقال فيه فى جملة الدعاء به « إيزيس لو لم تتوحدى لما كانت الأشياء . وان تصل الى حواشى حجابك يد الاحياء . فالمعبود اذا واحد وأن اختلفت الاسماء »

قال : « أى الاديان هذا قال : « دين المصريين القدماء » قال : « عجباً أفى مصر بقية من القوم؟ » قال « : ليس للظالم دين يا ابن العاص . والرومان قوم ظالمون . دخلوا هذه البلاد فافسدوا فيها وهدموا مابنى أصحاب المسيح عليه السلام بزهدهم وتجردهم وتسمحهم من بنيان للنصرانية متين ، وركن للمسيحية مكين ، وغادروا مصر لا تخلو من عاكف خاصة فى سريرته على دين آبائه وأجداده . وأنا من هذا الفريق » قال : « الآن انهاك عن عبادة الأصنام ، وآمرك بالدخول فى الاسلام ، إما أن تقبل ، وإما أن تقتل » قال : « القتل أحب إلى يا ابن العاص . ولكن لى كلمة أقولها وأرجو أن تسمع لى » قال : « هات » قال « : على التمسك بالدين قامت دولتنا القرون الطوال ، ومن بشدة التمسك به أدركها الزوال ، فذهبت من أجل (هرر) وأمست احدى العبر ، ولا أكره أنا أيضا أن أذهب على الأثر »

(قال الهدهد) فلم أدر بالاستاذ إلا وقد عاد سيرته الأولى ، فاذا هو نسر يطير بين أعين القوم ، وهم من أمره فى أعظم الدهش . فلحقت به وما زلنا ننفذ الافق حتى هبطنا ناحية من الفسطاط فتمثلنا كما لو كنا قسيسين من الأقباط ، وهناك التفت إلى وقال : « كيف وجدتنى وصاحبك » ؟ قلت : « ألان لك وجه الامر ، وخاشن آخره . قال بالحق خاشن ، وبالحق حاسن . لان مقاومة الاثنية فرض على نصراء العقل ، وحماة الحقيقة ، وقد تكفل بها الاسلام لسائر الملل »

قلت قد كان لك غنى يامولاى عن التكشف له واطلاعه على حقيقة معتقدك . قال أردت أن أريك كيف يحفظ القوم دينهم فى الكبيرة والصغيرة . قلت ماذا يرى مولاى فى عرابى وقد عاد وردته الجوارى بالنحس إلى البلاد ؟

قال كيف خلفت القوم بازاء عودته ؟ قلت تركتهم ينظرون إلى الجانى ولا

ينظرون إلى جنايته ، و يبرئه أجهل الناس به ولا يهتف هو ببراءته »

قال: «عجبا لكم معشر المصريين! أنتم أمة التاريخ ، وليس لكم فيه كتاب؟ هلا تشبهتم بآبائكم الاولين! فلقد كان الواحد منا أحرص الناس على حديث بعده يؤبده ، فى حجر يشيده ، وذكر مع الزمن يخلده ، فى أثر ينضده »

« وكان أحب الأعمال إلى ملوكنا وضع التاريخ وتدوين السير ، لعلمهم بان التاريخ دليل الأمم ومرشد الشعوب ، وان قوما لا يعرفون ماضيهم لا يكون لهم بحاضرهم اعتناء ، ولا فى آتيهم رجاء ، أليس عاراً عظيما على الشرقيين و فيهم اليوم العالم الذكى ، والكاتب اللامعى ، أن لا يعلموا من سيرة الأمير عبد الرحمن المتوفى بالأمس غير ما تنقله صحف الغربيين ومجلاتهم ؟ وعليكم معشر المصريين خصوصا أن تظل الحوادث العرابية حتى الآن مقلوبة الحقائق ، مجهولة الدقائق ، يؤخذ الميت فيها بذنب الحى ، وتلصق بالحى فى مداراة الميت؟ تنطقون فيها عن الهوى ، و تحكمون على محدثيها بمقتضى الهوى ، ولو دونت حق تدوينها لكان فيها لكباركم مزدجر ، ولصغاركم مع الأيام معتبر .

قلت : «ما سألت هذا يامولاى ، ولكن سألت رأيك فى عرابى » قال: «لا رأى لى فى الرجل ولما يمثله التاريخ للناس ، وانما أسترعيك القضية لا تفوت أهل النظر ، فى أحوال البشر ، و الباحثين فى طبائع الاجتماع» قلت : «وما تلك يامولاى» قال: «يدهش الناظر المتأمل والباحث المدقق لما يرى من التفاوت البين فى الاخلاق والتباين الظاهر فى الطباع بينكم معاشر النازلين هذا الوادى فى شمال افريقيا وبين أمة البوير سكان الجنوب ، و يحار فلا يدرى بأى الآراء الثلاثة يأخذ والى أي المذاهب الثلاثة يرجع

أيذهب مع القائلين بفعل البيئة فى الامم وتأثير الاقليم فى الشعوب ، و سلطان المقام على المقيم ، فيحكم أن جار الليث أسد ، وجار العير وتد ؟

أم يجارى الذاهبين الى أن اختلاف الطبائع ليس الا نتيجة اختلاف الاجناس ؟

أم يعتمد على رأى القائلين بأن العقل البشرى ، وهو مركز القوى المدركة فى الانسان ، والنفس وهى مهبط الفضائل أو الرذائل فيه ، ليستا إلا هبتين يشترك فيهما

اصناف العباد ، وأن تفرقوا فى أطراف البلاد ، و إنما يصح العقل بالتعليم الصحيح وتقوم النفس بالتربية الحقة ؟

على أننى الى هذا الرأى الثالث أميل ، وعليه فى اعتقادى المعول ، فلو أن عرابى وجماعته عرفوا القرآن عرفان كروجر وقومه للانجيل ، فلم يخلطوا الدين والبدع ، وكلاهما عند أكثركم شرع ، أو أن عقولهم نورت بالعلم الحقيقى ونفوسهم هذبت بالتربية السليمة ، لاجفلوا عن الثورة فى أولها ، أو لسلموا بأعراضهم فى آخرها. ولكن قلة العلم وفساد التربية قعدا بهم عن مقاومة الاستبداد فى أبانه ، ودفعا بهم الى الاهتمام بشأنه ، بعد انقضاء زمانه ، وهاتان هما بلية الشرق وآفة سكانه . على أنكم اليوم لا تزالون فى فضاء من أمركم ، إن شئتم نهضتم ، و إن شئتم ربضتم. مظالم نائمة ، وحرية قائمة ، وأقلام مادحة لائمة ، فعليكم بالعلم خذوه نافعا رافعا ، وابجروا منه ما يميت الى مايحيى ، واطلبوه لدنيا تعملون لها كأنكم تعيشون أبداً أو لآخرة تعملون لها كأنكم تموتون غداً .

وعليكم كذلك بالتربية . فانها باب مدينة العلم . لاتدخل إلا منه ، خذوا صحيحها ولا تأخذوا فاسدها . واطلبوها لانفسكم فان كبرت عنها فلا بنائكم . فان لم تكمل لهم كملت لابنائهم من بعدهم . وكونوا (الحفظة) الذين تكرم عليهم بلادهم فى الشدة أضعاف ماتكرم عليهم فى الرخاء . يكونها بالدموع آونة . وفى القلوب آونة . لايغفلون لها عن حرمة . ولا يقصرون لها فى الخدمة . حبهم لها العشق . لا التفات فيه الى ملامة ، ولا قيمة معه للسلامة ، أعمار الافراد قصار ، والامم طويلة الاعمار . وآمال الواحد الفرد تفوت موته . وآمال الجماعة لاتفوت . وانما هى لهم مثل الورق للشجر . ينزعه حينا و يكساه حينا .

« وما بنى قوم بناءهم فى المجد ولا قامت سعادة أمة الا على العلم والتربية . وهما انما يحصلان فى المدرسة . وليس مايمنعكم من انشائها . فاذا انشأها غيركم غير مسرف . و دخلها الكهل بالليل غير مستنكف . ولزمها الصبى بالنهار غير متكلف . وأخذتم العلم فيها كما يريد زمانكم الذى أنتم مخلوقون له ان يؤخذ . فقد استقبلتم الحياة من وجهها الحق ، وأخذتم التقدم العصرى بالسبب الاوثق .

« اللغة رأس مال الامة فى العلم والعرفان . والدين رأس مالها فى التربية والاخلاق

فاجعلوا المحل الاول فى مدارسكم لهذين . فالثمرات انما تأتى بقدرهما . الانسان اذا علم كان انسان العين . واذا جهل كان انسان الغابة . والعلم أن لم يتأسس بالتربية . كان لحامله محنة . وللناس فتنة . فاجمعوا بينهما فى الدار . ثم فى المدرسة . ثم فى الحياة . تلك المدارس الثلاث الكبر »

« فأما الدار فالاستاذ فيها المرأة . وأما المدرسة فالمعلم فيها الرجل . وأما الحياة فالمربى فيها الزمن »

« فابدؤا بالنساء فعلموهن فى الصغر . يعلمنكم فى الكبر . وربوهن فى الطفولة . يربينكم فى الكهولة . ولا تنشئوا مدرسة واحدة للرجال الا وقد أنشأتم مدرستين اثنتين للنساء »

« اذا اشتغل الحليم بالسفيه شارف على السفاهة . واذا اشتغل العالم بالجهول شارف على الجهالة . وأكثر ما ينتشر السفهاء والجهلاء . وأشد ما يكون افسادهم وايذاؤهم فى الأمم . وهى فى بداية نهضتها »

« فمثلها عندئذ كالأنهار الكبيرة فى أزمنة الفيضان ، تسوق الأقذار فتساق بتيارها ، ويختلط الخبيث بالطيب ، ثم لاتلبث أن تلفظ الفاسد وتستبقى الصالح ، فينصلح الماء ، وتفيض الخيرات على البلاد والعباد ، فلا يثبطن لئامكم كرامكم ، ولاتلقوا للصغائر بما يحدثون بالا . واعملوا كل بما تعلم من علم أو صناعة ، واتقنوا العمل ، فان اتقانه يلقى عليه اليمن والبركة ، ويولد بين العاملين المنافسة والمسابقة والمزاحمة ، وعلى هذا تقوم حياة الامم . كما تقوم حياة الافراد على دورة الدم »

« ليس بين دبيب الحياة فى الامة وبين ظهورها كاملة الادوات ، تامة الصفات الامثل ما يخفق فؤاد الجنين اول وهلة ، ثم تمسك الحياة فيه بعضها بعضاً ، وينمى بعضها بعضا فلا تزال به حتى تخرجه إلى الوجود ، فيؤدى فيه وظيفته ، ويستوفى فيه برهته ، ولو أجد مثلا لما أصف الا أمة اليابان ، وأنها الدليل حاضر ، و شاهد معاصر »

« على أن الحياة ربما كانت أسرع جرياً بالأمم منها بالافراد ، فقد جاوز اليابانيون اطوارها الاول الى هذا الشباب المرجو الخائل . المبشر بادراك الاعمار فى المدنية والحضارة فى نحو ربع قرن من الزمن ، وهى برهة قد لاتكفى الواحد من الافراد ليبلغ فى الصبا أملا ؛ أو يحسن فى الحياة عملا . »

(قال الهدهد) كان النسر يتكلم وكأن كلامه حديث الحبيبة تأخذه الآذان ، وهو

يأخذ الوجدان ، بيد أنه حكم عزر ، وحقائق كبر ، تستوجب النظر ، حتى أمسك عن الكلام ، فوددت أنه لم يمسك . وقلت له: « لو خيرت يامولاى فيما أريد لما اخترت الا أن يبعثك الله فتمشى فى القوم خطيباً هادياً . وطبيباً مداوياً . تتبع أقصى الداء ، وتصف عزيز الدواء »

قال: « ليكونن لى ولكم شأن يوم يجمعنا القاهرة » قلت : « ومتى تدخلها يامولاى؟ » قال : « يوم يقتل عثمان ويصير أمر العرب من الخلافة الى الملك . فهناك انفض يدى من دولتهم واصدر بك عن الفسطاط . وارد القاهرة . عاصمة مصر الحاضرة » . ثم أخذت النسر الاغماءة المعتادة فتثاءب وقال كلمته المألوفة اذا جاء الليل ذهبت الشياطين؛ وموعدنا غداً دار العجوز . وأصابنى مثل ما أصابه ، فما هى الا غمضة عين ثم انتباهة حتى رأيت الفسطاط واطلالها . وحاذيت فى القطار تلالها . فعجبت للحال وتحولها . والروح وتنقلها . وأخذت فى نفسى على النسر هذا الرجوع الى الخلط فى المواعيد . وأتعابى بدار العجوز أنشدها ولا أنشدها : « أهلا بدار سباك أعيدها »